كان أوّل لقاء بالدكتور طه حسين تلك الزيارة التي صحبتُ فيها، خلال ربيع ١٩٥٤، الصديق المرحوم بهيج عثمان، أحدَ صاحبيْ «دار العلم للملايين»، إلى ڤيلا «الرامتان» في القاهرة، التي كان يعيش فيها «عميد الأدب العربي» كما كان يلقَّب آنذاك. وكان بهيج عثمان أحد طلبة الدكتور طه حسين في كليّة الآداب بجامعة القاهرة، وقد اقترح عليّ أن أرافقه في تلك الزيارة بصفتي رئيساً لتحرير **الآداب** (التي كانت لاتزال تصدر عن دار العلم للملايين)، فكانت فرصةً ذهبية لملاقاة صاحب **الأيّام**، تلك السيرة الذاتية التي عمّرتْ أذهاننا وقلوبنا، والتي لا أشكّ في أنّي تأثرتُ بالغَ التأثُّر بها حين كتبت روايتي **الخندق الغميق**.

وكنت أنوي أن أسأل الدكتور طه عن رواية للكاتب الفرنسي آلان فورنيه بعنوان **مولن الكبير**، بعثتُ بترجمتها إليه حين كان مشرفاً على منشورات «الكاتب المصري». ولكنّه فاجأني بأنّه هو الذي ذكّرني بها حين قال لسكرتيره فريد شحاتة: «هات يا فريد أمانة الأستاذ سهيل» فجاءني بالمخطوطة من خزانة قريبة:

– احتفظنا لك بها بعد إغلاق منشورات «الكاتب المصري»، وكنا قد وعدناك بنشرها.

شكرتُ الدكتور طه على الأمانة، وأخذت أستمع إليه بلغته الصافية ولهجته الرائعة يتحدّث عن الترجمة وأهميّتها في نهضتنا ويحثّ عليها. وسأله بهيج عن رأيه في مجلّة **الآداب** التي كنا نوافيه بأعدادها، فأثنى عليها قائلاً إنّها مجلّة هامّة، لاسيما بعد احتجاب **الرسالة والثقافة والكاتب والكاتب المصري**.

وبعد فترة قصيرة من ذلك اللّقاء عُقِدَ في مصيف بيت مري في لبنان «أسبوعُ أدباء العرب» الذي دعت إليه جمعيّةُ «أهل القلم» التي كنت قد انتسبت إليها، وكنت عضواً في الوفد اللبناني في المؤتمر. وكنّا سعداء أن يلبّي دعوة «أهل القلم» وفدٌ هامّ من مصر يضمّ الدكتور طه حسين والدكتور حسين هيكل وأحمد رامي والسيّدة أمينة السعيد ومحمود تيمور وحبيب جاماتي. غير أنّ الدكتور طه تخلّف في آخر لحظة، وأرسل إلى صلاح لبكي رئيس جمعية أهل القلم يوضّح سبب اعتذاره في رسالة يقول فيها:

«كنت معتزماً أن أبحر إلى بيروت غُداة وصولي إلى مصر، وكنت معتزماً كذلك أن أصطحب زوجي وسكرتيري على ألاّ أكلِّف الجماعة من نفقتهما شيئاً لا في السفر ولا في الإقامة. ولكن ردّ السفارة اللبنانية أشعرني بأنّ المجاملة كانت تنقصه، فآثرتُ الإقامة في مصر على سفر يظهر أنّ السفارة اللبنانية كانت تراني مشتطاً فيه، وليس كلّ النّاس يحبّون السفر في الطائرات، ولم أكن لأفرض على السفارة ولا على الجماعة نفقاتِ مَنْ لا بدّ لي من مرافقتهم. وقد كان من الممكن أن تتصل السفارة بي لتستبين رأيي في هذا الأمر كلّه، ولكنّ السفارة جهلتني كما جهلت الأستاذ العقّاد، مع أنّها كانت تعرفني حقّ المعرفة (...) وأؤكد مخلصاً مرّة أخرى أني أسفت أعمق الأسف حين اضطررت للعدول عن هذه الرحلة (...) ولكنّي أرجو أن تتيح لي الفُرص المقبلة زيارة هذا البلد الحبيب إلى نفسي، الأثير في قلبي، أنهض بها أنا، ساعياً إليكم سعيَ الصديق إلى الصديق دون أن أشقّ بها على أحد».

ولكنْ شقّ علينا حقّاً أن يتخلّف الأديب المصري الكبير بسبب موقف جافّ تتخذه السفارة اللبنانية في القاهرة. فكان أن اقترحتُ

ذاك

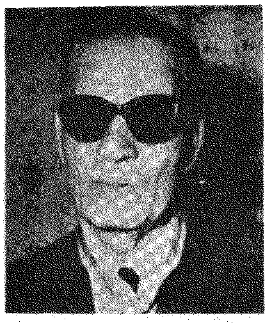

على رئيف خوري – وكان من أعزّ أصدقائي ومن أركان مجلّة **الآداب** – أن يشارك في مناظرة مع طه حسين تقيمها لجنةُ للمحاضرات في جمعية المقاصد الإسلامية كنت أرأسها في بيروت، وأبرقتُ للدكتور طه في ذلك، فجاءني الجواب بموافقته بأسرع ممّا كنت أتوقّع.

وهكذا أقيمت المناظرةُ في بيروت، في شهر نيسان ١٩٥٧ في أكبر قاعة للمحاضرات، هي قاعة الأونيسكو التي غصّت بالمستمعين، وظلّت أصداءُ المناظرة تتردّد وقتاً طويلاً في أجواء الحياة الثقافية اللبنانية.

***

لا أريد، ونحن نعيد نشر المناظرة في «ذاكرة **الآداب**»، أن أناقش المرحومين رئيف خوري وطه حسين في مضمون الفكرة؛ فقد نوقش الموضوع مطوّلاً حتى باتت مناقشته مملّة، بعد انقضاء زهاء نصف قرن عليه. بل أنتهز هذه الفرصة، لأبتعث من «الذاكرة» صوراً من ذكرياتي مع طه حسين... وأترك لحلقةٍ أخرى كلماتٍ طويلة في رئيف خوري.

أخذت صداقتي بالدكتور طه تتوطّد مع الأيّام. وكنت أزوره مرّة على الأقلّ كلّ عام، وكنت أبعث له بـ«استفتاءات» **الآداب** طالباً مشاركته، فيلبّيها دون تأخُّر. ثم أخذنا نتعامل كمؤلِّف وناشر؛ وقد أعطى «دار الآداب» على هذا الصعيد حقّ إصدار مجموعة من كتبه الإسلاميّة تحت عنوان **إسلاميات**. وفتّشت حتى عثرت ذات يوم في مجلّة **آخر ساعة** القاهرية على سلسلة مقالاتٍ له تحمل ذكرياته، فاستأذنته في جمعها تحت عنوان **مذكرات طه حسين**.

وأذكر أنّي حين زرته لهذا الغرض في القاهرة في ١٩٦٧/٣/٨ رويتُ له أنّي قادم لتوّي من زيارة قمت بها لنجيب محفوظ وأقنعته بالموافقة على أن تنشر دارنا روايته **أولاد حارتنا** التي كان قد نشرها مسلسلة في **الأهرام**، فأثارتْ عليه الأزهر، وظلّ يمتنع عن الموافقة على نشرها وأنا أراجعه في ذلك لعدّة أعوام، إلى أن جئته – ذلك اليوم – وأنا مصمّم على نشر الرواية مادمت أملك نصّها المنشور في **الأهرام**. وكان برفقتي وكيل الدار في القاهرة عديلي السيّد فتحي نوفل الذي سارع يبسط أمام الأستاذ نجيب ظرفاً يحمل خمسة آلاف جنيه، بمثابة حقوق تأليف على الطبعة الأولى من الرواية.

تساءل الدكتور طه حسين: خمسة آلاف جنيه دفعةً واحدة؟

وحين أكّدنا له ذلك قال: يا بَخْته!

قلت للدكتور طه: إنّ دارنا مستعدّة لمنحك النسبة نفسها على **مذكرات طه حسين** (وهي ما يساوي ألفاً وثلاثمئة وخمسين جنيهاً).

فوافق على ذلك، ووقّعنا في ذلك اليوم عقداً بالاتفاق، كتبه سكرتيره فريد شحاتة بخطّ يده، وختم عليه الدكتور طه بختم يحمل اسمه، أخرجه من جيب صدرته.

***

انقطعتُ عن زيارة الدكتور طه حسين في القاهرة طوال سنوات. ولكنّني لا أنسى ذلك الوجه النبيل الذي كان أبرز وجوه نهضتنا الثقافية العربية.

سهيل ادريس

رة الآداب ١٠

الأديب يكتب للخاصة(*)

بقلم طه حسين

سيداتي سادتي

يجب أن اقول لكم الحق قبل أن آخذ معكم في هذا الحديث: فأنا لم ألتزم الدفاع عن الخاصّة ولا عن العامّة، وأنا لم ألتزم موضوعاً ما. فكلّ الذي كان، وكلّ الذي أعرفه، هو أنّي تلقيت دعوة كريمة من جمعية المقاصد الإسلامية أمضاها الأستاذ الصديق سهيل ادريس، وعرض فيها أن ستكون مناقشة حول الكتابة للخاصّة أو للكتابة للعامّة، وطلب إليّ أن أذكر أني سأتحدّث عن الكتابة للخاصّة إن أردت. وهنا يجب أن أقول الحق مرّة أخرى، وهو أنّ شوقي إلى لقائكم وشوقي إلى تحيّة لبنان في وطن لبنان، بعد كلّ الذي أسداه إليّ لبنان من الخير، وأسداه إليّ من المعروف، أقول إنّ شوقي إلى لقاء لبنان ألقى في روعي أن أجيب الأستاذ سهيل ادريس بأني موافق على كلّ ما يريد مادامت النتيجة أن أزور لبنان وأنْ ألقاكم وأنْ أصغي إليكم.

يجب إذن أن نتفق. فهذه المناظرة أو هذه الموقعة أو المعركة أو هذه الخصومة، إنّما هي فيما أعتقد شيء مصطنع لا أعرف له أساساً ولا أعرف له أصلاً، لسبب في غاية البساطة: وهو أنّي فيما بيني وبين نفسي وفي كلّ ما كتبت وفي كلّ ما علّقت وفي كلّ ما حاولت من عناية بالأدب، لم أفهم عامّة وخاصّة بالقياس إلى الأدب وإنّما فهمت أدباً وفهمت قراء يقرأون هذا الأدب، فيرضون عنه أو يسخطون عليه، ثم لم أتجاوز هذا إلى شيء آخر مطلقاً. ولست من الذين تفتنهم هذه الآراءُ الكثيرة الحديثة، التي يشغل الأوروبيون بها أنفسهم منذ زمن والتي يشغلون بها أنفسهم منذ كانت هذه النظريات السياسية التي غيّرت نظم الحياة في هذا العصر الحديث. ولست من الذين يؤمنون بهذا كلّه أو يأبهون له أو يحفلون به، لأنّ الأدب قد وُجد قبل أن توجد هذه النظريات، وهو قد أثّر في حياة الأمم والشعوب، وقد أتاح لها أن تتطوّر، وأتاح لها ألواناً كثيرة من التأثّر دون أن يفكّر الذين أنشأوه في أنّهم يكتبونه للعامّة أو للخاصّة أو يفكّرون في أنّهم موجِّهون أو موجَّهون. كلّ هذه أشياء لم تكن تخطر للأدباء ببال عندما أنشأوا روائعهم منذ العصور القديمة إلى أوائل هذا العصر. فما الذي طرأ على الحياة الإنسانية وعلى الحياة العقلية بصفة خاصة؟ ولِمَ نقسم الشعرة إلى نصفين، ولِمَ نلتمس الظُّهر في الساعة الرابعة عشرة كما يقول الفرنسيون؟

لا شيء، إلاّ أنّ آراء ونظريات جديدة في السياسة قد دعت ألواناً من الساسة إلى أن يسيطروا على حياة النّاس؛ وقد سيطروا عليها بالفعل، وكلّكم يعرف أنّ السياسة إذا سيطرت فهي لا تستطيع أن تعيش ولا أن تتسلّط ولا أن تمكّن لنفسها إلاّ إذا كان لها دعاة يؤيّدونها ويصدّقونها ويذيعون نظرياتها ويدعون لها في أعماق الشعوب. هؤلاء الساسة أرادوا إذن أن يؤثّروا في الأدب، وأن يفرضوا عليه نظرياتهم السياسية، فكان الأدب الموجِّه وكان الأدب الموجَّه، وظهرت الكتابة للخاصّة وظهرت الكتابة للعامّة، وظهرت الكتابة التي يلتزم فيها الأديب وظهرت الكتابةُ التي لا يلتزم فيها الأديبُ شيئاً. كلّ هذه أشياء صنعتها السياسة أيّها السادة، ولم يصنعها شيء غير السياسة. وإذن فأذنوا لي في أن أكون حرّاً، وأذنوا لي في أن أكون حرّاً بأوسع وأعمق معاني هذه الكلمة، واطمئنّوا فلو قد صارحتموني أنّكم لن تأذنوا لي بهذه الحريّة، فسيكون ردّي عليكم يسيراً جدّاً: هو أنّي سأكون حرّاً سواء رضيتم أم لم ترضوا!.

***

ما طبيعة هذه المشكلة التي أثارها الأستاذ سهيل ادريس وخاض غمارها الأستاذ الصديق رئيف خوري؟ ما طبيعة هذه

(*) الآداب، عدد نوار ١٩٥٥.

المشكلة، وما عسى أن تكون في حقيقة الأمر؟ دعوا هذا العصر الحديث الذي نعيش فيه، ودعوا كلّ الظروف التي تحيط به وتؤثّر في الأدباء وفي أدبهم آثاراً مختلفة، وانتقلوا بنا إلى عصر بعيد كلّ البعد عن هذه الظروف التي نحن فيها الآن، واختاروا أيّ أديب شئتم من أدباء العصور القديمة، ولنختر مثلاً أدباء التراجيديا عند اليونان. من الذي كان يوجّه هؤلاء الأدباء؟ أكانوا موجَّهين أم كانوا موجِّهين أم موجَّهين وموجِّهين مادام الأستاذ رئيف يحب هذه الألفاظ؟ من الذي وجّه كاتباً أو شاعراً كسوفوكل مثلاً؟ أتظنّون أنّ الحزب الارستقراطي أم الحزب الديمقراطي في أثينا اتّفق مع سوفوكل أن ينشئ قصّة «انطيغونا» أو قصة «الكتر» أو ما شئتم من قصصه، على هذا النّحو الذي أنشأها عليه؟ أتظنّون أنه إنّما أنشأ قصته على هذا النّحو لأنّ هذا كان يدعو إلى هذا المذهب أو ذاك من المذاهب السياسية، ويلائم هذا الحزب أو ذاك من الأحزاب التي كانت تتنافس في أثينا؟

أمّا أنا، فمقتنع بأنّ سوفوكل لم يحفل عندما أنشأ **أنطيغونا** لا ببيركليس ولا بالذين سبقوا بيركليس ولا بالحزب الديمقراطي ولا بالحزب الارستقراطي، وإنّما وجد أمامه أسطورةً قديمة رائعة تأثّر بها اليونان حتى تناقلتها أجيالهم، ورأى أنّ النظام في أثينا، النظام الدّيني والنظام السياسي – يقضي أن يُحتفل في كلّ عام بإله من آلهتهم هو أثينا – في التراجيديا أو هو ديونيسوس في الكوميديا، وأن الشعراء يتفقون في إنشاء طائفة من القصص لتُعرض على الجماهير في ملعب التمثيل، وأحسّ من نفسه اتّجاهاً إلى هذا الفنّ وقدرة عليه، فمارس هذا الفنّ واستغلّ هذه الأسطورة القديمة وأنشأ قصّته هذه، أو أنشأ قصصه الأربع التي مسّت حياة الأدب وما كان بعد محنة أوديب، دون أن يكون للسياسة ولا لأحد سلطانٌ على هذا الشاعر، لا في رأيه ولا في صيغته ولا في مضمونه، كما يحب الأستاذ رئيف أن يقول، ولا في موضوعه أو معناه كما نحب نحن القدماء أن نقول. لم يفكّر أحدٌ في أن يوجّه سوفوكل إلى شيء، ولم يفكّر سوفوكل في أن يوجِّهه أحد إلى شيء، وإنّما رأى أمامه أسطورة فاستغلّها، استغلّها على النّحو الذي لاءم طبعه ومزاجه وتصرّفه ولاءم المذاهب المألوفة في الفلسفة والحياة في العصر الذي كان يعيش فيه.

وإذن فقد استطاعت طائفة من القُدماء في عصور مختلفة جداً، متباعدة في الأزمنة والأمكنة، متباينة في الظروف وفي المؤثّرات المختلفة التي تؤثّر، استطاعت هذه الطوائف أن تنتج ما أنتجت، دون أن تفكّر في شيء من كلّ هذا الكلام الجميل الذي استمعنا له منذ حين [المقصود: كلام رئيف خوري الذي أعدنا نشره في العدد الماضي – **الآداب**]. لأنّ كلّ هذه المعاني لم تكن تخطر لأحد منهم ببال، أو لأنّ العصر لم يكن يسمح بأن تنشأ هذه المعاني ولا أن يُدفع إليها الكتاب والشعراء.

وتظنّون أنّ أحداً وجّه هوميروس أو وجّه الذين أنشأوا **الإلياذة** أو أنشأوا **الأوديسة**؟ فما عسى أن يكون التوجيه الذي دُفع به هؤلاء النّاس إلى إنتاج ما أنتجوا؟ بل هل يخطر لكم أنّ هوميروس وأصحابه الذي أتمّوا بعده **الإلياذة** أو **الأوديسة** فكّروا لحظة في الصورة والمضمون، أو في اللّفظ والمعنى والأسلوب كما نقول، أو في أيّ ظاهرة من هذه الظواهر التي يكثر فيها قول النقّاد منذ نشأ النقد؟ أؤكّد لكم أنّ شيئاً من هذا لم يخطر لأحدهم ببال وإنّما دُفعوا إلى إنتاجهم الأدبي: دفعتهم طبيعتهم أوّلاً، ودفعتهم حياتهم وحياة الشعب الذي كانوا يعيشون فيه ثانياً، فصوّروا ما صوّروا من حياة شعوبهم؛ لم يوجِّههم أحد ولم تكن لهم نظرية ما لا في الأدب ولا في الجمال، ولا في شيء من هذا بحالٍ من الأحوال.

وشعراؤنا نحن وكتّابنا نحن؟ وشعراؤنا وكتّابنا في عصورنا القديمة، من الذي وجّههم؟ وما هذه النظريّات المعيّنة التي فرضت عليهم نفسها؟ أمّا في العصر الجاهلي فلا أعرف أنّ أحداً من الجاهليين كان يعرف نظرية ما في نقد أو أدب أو في شيء من هذه الأشياء التي نتحدّث عنها الآن. وفي العصور الإسلاميّة الأولى مضى شعراؤنا مع طبيعتهم، فاندفع إلى السياسة الحزبية منهم من اندفع، واستقلّ عن سياسة الأحزاب وعُني بالفنون الخاصّة منهم من آثر هذا الاستقلال، واستغلّ أصحاب السّياسة هذا الشاعر أو ذاك، فأجازوه وشجّعوه لأنّه كان يدعو لهم ويروّج مبادئهم. هذا كلّه شيء طبيعي لا غبار عليه، ولكن الشيء الذي ليس فيه شكّ أنّه لم تكن هناك نظرية فنيّة تفرض على هذا الشاعر أو ذاك أن يفكّر في أنّه ينظم شعره للشعب، أو ينظم شعره لهؤلاء الخاصّة الذين ابتكرهم الأستاذ سهيل ادريس والأستاذ رئيف خوري من حيث لا أدري. لم يخطر لأحد من هؤلاء الشعراء أن يفكّر في عامة أو خاصّة، وإنّما فكّر في فنّه وفكّر في الغرض الذي قال فيه الشعر ثم لم يزد على هذا إلاّ أنّه أجاد وأتقن بمقدار ما أُتيحت له الإجادة وأُتيح له الإتقان.

شاعر كعبيد اللّه بن قيس الرقيّات كان قرشيّاً، مؤمناً بقريش، كارهاً لكلّ سلطان يعتمد على قوّة غير قوّة قريش، يبغض الأمويين لأنّهم اعتمدوا على اليمن في تقوية سلطانهم ولا يحب العلويين لأنّهم اعتمدوا على الموالي في تقوية مذهبهم والدعوة له في شرق الدولة الإسلاميّة. كان قرشيّاً كهذه الارستقراطية القرشية التي عاشت في العصر الجاهلي، وعرفت كيف تستغلّ الظروف الجديدة بعد أن ظهر الإسلام وأتيح له الانتصار والتفوّق. ومن أجل هذا يدافع عن سياسة عبد اللّه بن الزبير الذي يريد أن يكون سلطانه قرشياً صرفاً لا يحبّ أن يعتمد على اليمن ولا على الموالي، وإنّما يحبّ أن يعتمد

على قريش وعلى قريش وحدها. من الذي يوجّهه؟ ما عسى أن تكون النظرية التي تأثّر بها؟ الشيء المحقّق أنّ ابن الرقيّات لم يكن يتأثّر إلاّ بحبّه لمصعب بن الزبير وبإيمانه بقريش وحرصه على سيادة قريش، وبغزله في أولئك الرقيات اللاتي هام بهن وسمي باسمهن.

وخذوا من أحببتم من شعرائنا القدماء أكانوا مدّاحين أم كانوا هجائين أم كانوا سياسيين، فلن تجدوا أنّهم فكّروا في عامّة أو فكّروا في خاصّة، ولكن المشكلة الحقيقيّة ليست هذه. هم لم يفكّروا في شيء من هذا ولكنّهم أنشأوا شعرهم لمن؟ لم يفكّروا هم، فلنفكّر نحن مكانهم. لمن أنشأ الشعراء شعرهم؟ أترونهم أنشأوا هذا الشعر لهؤلاء الذين كانوا يمدحونهم أو يهجونهم؟ أترونهم أنشأوا الشعر السياسي لقادتهم السياسيين؟ أمّا أنا فأعتقد أنّهم لم يفكّروا في أن ينشئوا شعرهم لهؤلاء، وإنّما الشعر وُجّه قبل كلّ شيء إلى القادرين على فهمه وذوقه والتأثّر به من الذين سيسمعونه حين ينشَدُ أو يقرأونه حين يذاع مكتوباً.

وهناك أشياء قوامها الخطأ أيّها السادة، ومعذرة إليكم من هذا العنف في الحديث. هناك الخطأ في فهم التاريخ الأدبي العربي بنوع خاص. لست أدري أعندكم الآن هذه المشكلة التي يشقى بها كثير من الكتاب ومن الأدباء في مصر، وهي السخط على المدح وعلى المادحين والممدوحين وإعلان أن شعر المدح إنّما كان يصوّر مهنة الشاعر ويصوّر أنّه كان يبيع شعره ويبيع خلقه ويبيع نفسه، إلى آخر هذا الكلام الكثير الذي يقال لا منذ كانت الثورة الأخيرة في مصر، بل منذ كان العصر المصري الحديث منذ أوائل هذا القرن. أوكّد لكم إنّ هذا كلّه ليس في حقيقة الأمر إلاّ عبثاً من العبث، وكلاماً لا يقدّم أصحابه ولا يؤخّر، فليس من شكّ في أنّ شعراءنا قد مدحوا، وغلوا في المدح إذ قالوا شعرهم، ولكن ليس من شكّ أيضاً في أنّنا عندما ندرس حال هؤلاء الشعراء الذين كانوا يبيعون المدح ويأخذون ثمنه من الأمراء والخلفاء، وندرس حال أولئك الذين كانوا يُغرَوْنَ بهذا المدح ويعطون الجوائز السنيّة في سبيل هذا المدح ونسأل أنفسنا: أيّ الفريقين كان أدنى إلى الغفل، وأقرب إلى الحماقة، وأيّ الفريقين كان مغفّلاً بالمعنى الصحيح؟ فالجواب هو أنّ الملوك والخلفاء والأمراء هم الذين كانوا أغفالاً مغفّلين، وأنّ هؤلاء الشعراء كانوا يعبثون بهم ويسخرون منهم فيما بينهم وبين أنفسهم ثم يغدقون عليهم فيقولون لهم كلاماً لا يصدّقه إلا المحمقون الأغرار. والمدهش أنّ هؤلاء الخلفاء كانوا يصدّقون هذا الكلام، ويؤدّنَ عليه لهم أثماناً ضخمة.

عندما يقول شاعر لهارون الرشيد:

وأخفت أهل الشرك حتى أنّه
لتخافك النطف التي لم تُخلق

فيرضى الرشيد عن هذا الكلام، ويهتزّ له أريحيّة وطرباً، ويجيز الشاعر أعظم جائزة وأسناها، أيّ الرّجلين كان محمّقاً؟ ليس هو الشاعر من غير شك، فالشاعر لم يكن من الحماقة بحيث يظنّ أنّ الرشيد يستطيع أن يخيف النطف التي لم تخلق. وإنّما هو الرشيد الذي غرّه الغرور واطمأنّ إلى قوّته، وظنّ أنّه حقيقة يخيف النطف التي لم تخلق. وعندما يقول له شاعر آخر:

وعلى عدوّك يا ابن عم محمد
رصدان: ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبّه رعته وإذا غفا
سلّت عليه سيوفك الأحلام

فيطمئن إلى هذا ويجيز الشاعر، ليس الشاعر هو المغفّل، وإنّما المغفل هو الذي ترك نفسه ينخدع بهذا الكلام. ولم يتمثّل هذا في أحد كما تمثل في أبي الطيّب المتنبّي الذي لم يسخر أحد قط بممدوحيه كما سخر هو بالكثرة الكثيرة من ممدوحيه. فقد كان يحتقر ممدوحيه كافّة، لا استثني إلاّ سيف الدّولة، كان يغلو في مدح بعضهم حتى يجعله مستقراً لروح من الله. ويغلو في مدح بعضهم حتى ليشبِّهه بموسى وعيسى ومن شاء من الأنبياء، وهو يحتقرهم أشدّ الاحتقار فيما بينه وبين نفسه. فأيّ الفريقين كان يبيع نفسه، وأيّ الفريقين كان يبيع خلقه وأي الفريقين كان ينزل للآخرين عن كرامته؟ أمّا أنا فاعتقد أنّ الممدوحين هم الذين خسروا في هذه القضيّة، وأنّ الشعراء لم يخسروا فيها شيئاً. وأغرب من هذا، وهو الذي يتّصل بهذه الخصومة التي أثيرت لا أدري لماذا، أغرب من هذا أنّ هؤلاء الشعراء عندما كانوا يمدحون وعندما كانوا يهجون، أكانوا حقّاً يفكّرون فيمن يمدحون ويهجون فحسب، ولا يفكّرون في شيء آخر، أم كانوا يفكّرون في أن ينشئوا شعراً رائعاً يروع كلّ من سمعه وكلّ من قرأه؟ فهم قبل كلّ شيء، قبل أن يفكّروا في الممدوحين وفي المهجوين وفي الساسة، إنّما يفكّرون في الشعب، ويفكّرون في هذه الكثرة من النّاس الذين سيقرأون هذه القصيدة أو سيتناشدونها فيما بينهم.

أمّا أنا فأؤمن أيّها السادة بأنّ المادحين لم يفكّروا بممدوحيهم بمقدار ما فكروا في سامعيهم وقرّائهم. وليس أدلّ على ذلك من أنّ هؤلاء المادحين قد انقرضوا وانقضى الذين مدحوهم ولانزال نقرأ شعرهم إلى الآن فنجد في قراءته لذّة ومتعة ونحسّ الرّوعة كلّ الروعة بالقياس إلى فريق منهم. لقد مات المعتصم ومات أبو تمّام ومات الذين سمعوا أبا تمّام عندما أنشأ بائيته في قصّة عموريّة، ولكنّنا نقرأ هذه القصيدة الآن فنجد لها الروعة وربما كان فقهنا بهذه القصيدة خيراً من فقه الذين عاصروا أبا تمّام.

إذن فليس هناك شيء جديد عندما يقال: يجب أن يكتب الأديب للعامّة دون الكافة، وعندما يقال بل يجب أن يكتب

الأديب للخاصّة. لا جديد في هذه النظريّة مطلقاً. لا أعرف أديباً كتب أو شاعراً نظم شعراً وهو يفكّر في طائفة بعينها، لا يفكّر إلاّ فيها. وإنّما الذي أعرفه أنّ الأديب يفرض الموضوعُ نفسه عليه أوّلاً، ويلحّ عليه بعد ذلك إلحاحاً شديداً حتى لا يرى بدّاً من أن يُخرجه إلى غيره، فينظمه شعراً أو يصنعه نثراً، ثم يذيعه بين النّاس على الطرق البسيطة التي كانت معروفة قبل أن تنشأ المطبعة، قبل أن يذيعه على النّاس بالطريقة الحديثة التي عُرفت بعد وجود المطبعة وبعد تنظيم النشر. فهو إذن لا يكتب لنفسه، وما أكثر ما يخدع الأدباء أنفسهم فيقولون إنّهم يكتبون لأنفسهم. كلام فارغ: لا يكتب الأديب لنفسه ولو قد أراد أن لا يكتب إلاّ لنفسه لما احتاج إلى الكتابة، ولاكتفى بمداعبة خواطره وآرائه حين تجُول في نفسه وتضطرب بها عواطفه، فهو ليس في حاجة إلى أن يقرأها مكتوبة، وحسبه أن ينعم بها. ولكنّه حين يخرجها من نفسه وحين يلقيها إلى القرطاس يثبت أنّه لا يكتب لنفسه وإنما يكتب لها ويكتب لغيرها، وهو لا يكتب إلاّ لأنّه يفكّر في غيره، ثم هو لا يكتب للخاصّة، وهو لا يكتب للعامّة ولا يفكّر في العامّة، وإنّما يكتب لغيره، يكتب لكلّ من يتاح له أن يقرأ، ويكتب لكلّ من يتاح له أن يفهم، ويكتب لكلّ من يتاح له أن يتذوّق. فإذا كان الذين يتاح لهم الفهم والذوق هم من يسمّيهم الأستاذ رئيف – ولا أسمّيهم أنا شيئاً لأني لا أعرفهم – إذا كان هؤلاء هم الخاصّة فالأديب يكتب للخاصّة؛ وإذا كان هؤلاء الذين سيتاح لهم أن يقرأوا ويفهموا ويذوقوا هم العامّة أو هم الشعب كلّه. فالأديب يكتب للعامّة أو يكتب للشعب كلّه؛ وكلّ أديب حريص أشدّ الحرص على أن يقرأه أو يفهمه ويذوقه أضخم عدد ممكن من النّاس، فمن زعم لكم غير هذا فثقوا بأنّه خادع أو مخدوع. فالأديب بطبعه طموح، وهو بطبعه مغرور، وهو بطبعه حريص على أن يبلغ قلوب النّاس جميعاً ونفوسهم جميعاً إن أتيح له ذلك. فمن قال لكم إنّه لا يكتب إلاّ لطائفة بعينها من النّاس فثقوا بأنّه إنّما يريد أن يقول بإنّه يائس، وعالم وواثق كلّ الثقة بأنّه لن يفهمه ولن يذوقه إلاّ عدد محدود من النّاس.

أيّها السادة، لست أدري أناقشت الأستاذ رئيف خوري في كلّ ما عرض علينا أم لم أناقشه، بل يخيّل إليّ أني لم أناقشه مطلقاً، لسبب بسيط هو أني لم أؤمن قطّ بهذه المناقشة، فكلّ ما أحرص أشدّ الحرص على أن أقوله للأستاذ الصديق وعلى أنْ أقوله لحضراتكم – وقد قلته دائماً ويظهر أنّي لن أملّ قوله – هو أنّنا نستطيع أن نتّفق على كلمة سواء. إذا كان الذين يفهمون الأدب ويقرأونه ويذوقونه ويستمتعون به قلّة، فلهذه القلّة يكتب الأديب؛ وإذا كانوا كثرة فلهذه الكثرة يكتب الأديب.

والغريب أنّ من الأدباء من يكتب في أوّل أمره لقلّة قليلة جداً. ولكن مرّ الزّمن، ورقيّ الحياة، وانتشار الثقافة، ويقظة الشعب، ومشاركته في الثقافة، كلّ هذا يتيح للأديب الذي كتب لفئة قليلة أن يكون قد كتب لفئة كثيرة لا تحصى كثرتها. فالذين يقرأون الآن شعر القدماء أكثر جدّاً من الذين قرأوهم في أيّامهم، لأنّ العصر الذي عاش فيه شعراؤنا القدماء والعصر الذي عاش فيه القدماء من اليونان والرومان والعصر الذي عاش فيه دانتي، مادام الأستاذ رئيف قد ذكر دانتي، والعصر الذي عاش فيه كورنيل وراسين وموليير وفولتير وكلّ هؤلاء، في هذه العصور كان الذين يقرأون قلّة قليلة، وكان هؤلاء الشعراء وهؤلاء الكتّاب ينشئون أدبهم لهذه القلّة القليلة. ولكن الدُّنيا تغيّرت وأصبح التعليم فرضاً على الشعب كلّه، وأصبحت الشعوب كلّها آخذة في أن تقرأ وتكتب وتتثقّف، وإذا الذين يقرأون دانتي والذين يقرأون سوفوكل لا يقاس إليهم بأيّ حال من الأحوال من قرأوا هذين الشاعرين حين كتبا ما كتبا من آثارهما الراقية.

وإذن فقد يكتب الأديب للخاصّة أو للقلّة القليلة ثم يتاح لأدبه أن تقرأه الكثرة التي لا سبيل إلى إحصائها. هوميروس أنشأ شعره لليونان، ولكن من الذين يقرأون شعر هوميروس الآن؟ أهُمُ اليونان وحدهم؟ أم الإنسانية كلّها؟ وكذلك سوفوكل، وكذلك كلّ الشعراء البارعين وكلّ الكتّاب الممتازين، كلّ هؤلاء العبقريين في الفنّ أنشأوا فنونهم لطائفة بعينها ولنقل أنشأوها لشعوبهم، لكنّها أصبحت إنسانيّة عالميّة. فليس هناك إذن خاصة ولا كافّة ولا قلّة ولا كثرة، وإنّما هناك الحظّ وهناك الظروف وهناك كلّ هذه الأشياء التي تتيح للأدباء أن يكتبوا وأن تقرأهم قلّة أو يكتبوا ثم تقرأهم كثرة كثيرة لا حدّ لها. أتظنّون أنّ الذين يقرأون أبا العلاء المعرّي في هذه الأيّام يمكن أن يقاس إليهم من قرأ المعرّي في أيّامه؟ مطلقاً. لا، ولم يكن يخطر مطلقاً لأبي العلاء أنّ العالم العربي كلّه سيقرأه وسيقرأه منه مَنْ تخصص في الأدب ومن لم يتخصّص وسيقرأه كلّ من يتاح له أن يقرأ وكلّ من يستطيع أن يفهم ويذوق. وإذن فالموضوع في نفسه ليس دقيقاً، ليس هناك خاصّة، وليس هناك عامّة، وإنّما هناك أدب يجب أن يُنشأ ويجب أن ينشأ كأروع ما يكون الأدب وفي أجمل صورة ممكنة وفي أحسن موضوع ممكن ثم يُكتب، ولتقرأه الخاصّة ولتقرأه العامّة وليقرأه من يشاء فهو لم يكتب لهؤلاء أو لهؤلاء. وإنّما كتب ليقرأ، وليقرأه كلّ من يستطيع أن يقرأه أو يفهمه أو يذوقه. ولست مطمئناً إلى هذه المذاهب في الأدب. أن يكون الأدب إشتراكياً، أو أن يكون الأدب شيوعيّاً، أو أن يكون الأدب ديمقراطياً، كلّ هذا – أرجو أن تعذروني – إذا قلت لكم إني لا أفهمه ولا أسيغه ولا أحب للأدب أن يُفرض عليه مذهب من المذاهب أو خطّة من الخطط وإنّما الأديب يفرض لنفسه وعلى نفسه طبعه ومزاجه وخطّته، والحريّة الواسعة المطلقة يجب أن تكون هي القانون وهي الصلة

بين الأديب وبين الذين يقرأونه. وقد قلت دائماً وسأقول دائماً إنّي أكتب ما أشاء كما أشاء، ولا أسمح لقارئ مهما يكن أن يجادلني فيما أكتب أو في الطريقة التي أكتب عليها، ولا أن يفرض عليّ رأياً من الآراء أو مذهباً أو خطّة، وإنّما الذي هو حق للقارئ هو أن يقرأ إن شاء وأن لا يقرأ إن شاء. فإذا قرأ فمن حقّه أن يغضب ومن حقّه أن يسخط ومن حقّه إن شاء أن يمزّق الكتاب تمزيقاً، كلّ هذا لا يعنيني. وكم أحب أن يجيبني إخواننا الذين يحبّون الأدب الموجّه، أتراهم يقرأون الآداب القديمة، أتراهم يذوقون هذه الآداب؟ الذي أعرفه أنّهم يقرأونها قراءة ملحّة وأنّهم يقدرونها حق قدرها وأنّهم يحرصون عليها أشدّ الحرص، يجاهرون بذلك أم يستخفون به لا أدري، ولكن المهمّ هو أنّ الذين يحبّون الأدب الموجّه الذي توجّهه النظريات السياسية أو توجّهه الشعوب لا أدري، مع حبّهم لهذا الأدب الموجّه ومع حرصهم على أن يكونوا موجّهين، أي مع حرصهم على أن ينزلوا عن بعض حقّهم في الحرية والاستقلال، مع هذا كلّه هم يقرأون مونتانيُ ويقرأون شكسبير ويقرأون كورنيل وراسين وموليير ويقرأون القدماء من العرب ومن اليونان ومن الرومان وقد يقرأون من الآثار الهندية القديمة ويجدون في هذا كلّه روعة وأيّ روعة مع أنّهم يعرفون أنّ هذا الأدب القديم لم يكن موجهاً بالمعنى الذي يفهمونه هم وبالمعنى الذي يريدونه هم الآن.

ألستم ترون أنّ في هذا تناقضاً قوياً جداً بين ما يريده هؤلاء السادة وبين حقائق نفوسهم؟ هم فيما بينهم وبين نفوسهم يستمتعون بالأدب غير الموجّه، فإذا أرادوا أن ينشئوا أدباً أبَوا إلاّ أن يكونوا موجّهين وأبَوا إلاّ أن يقيّدوا أنفسهم. كيف تسمّون هذا وكيف يسمّون هم هذا؟ أمّا أنا فأسمّيه التناقض من ناحية وأسمّيه التفريط في حريّة الأديب من ناحية أخرى. ومهما يكن فلنقل الحق ولنقله في صراحة لا نتردّد ولا نشفق ولا نخاف. أتريدون أن تعرفوا هذا الحق؟ بسيط جداً: الأدب الموجّـه هو الأدب الذي يراد به أن يكون أدب الدعـوة، ويراد به أن يسوق الشعب إلى ما يريده بها هذا الحزب أو ذاك ليكن اشتراكياً أم شيوعياً أم ديمقراطياً. ولا أحب أن أخدع نفسي مطلقاً ولا أحب أن يخدع أحد نفسه، إنّي لا أحب أن أتملّق الشعب لأخضعه لما لا ينبغي أن يخضع له؛ إنّي لا أريد أن أقول إني أكتب من الشعب وأكتب للشعب وأكتب بالشعب وأستقي واشتقّ ما أكتبه من الشعب. ليسمع الشعب هذا الكلام وليقرأه وليندسّ له هذا المذهب أو ذاك؛ فأنا أخدع الشعب عن نفسه وأنا أسخّر الشعب لما لا أحبّ أن تُسخر له الشعوب. والأمر أيسر من هذا. أما أن الأديب موجّه بطبعه وبفطرته، توجّهه طبيعته هو ومزاجه هو وطبعه هو، ويتعرّض من أجل ذلك للسخط ويتعرّض للأذى ويتعرّض للعذاب والنكال، فهذا حقّه وهذه طبيعته في الحياة وهذه طبيعة الأدب الذي يستحق أن يكون أدباً. وأما أن يأتي التوجيه من غيره كائناً ما يكون غيره، ليكن فرداً، ليكن حزباً، لتكن حكومة، لتكن جماعة، فهذا لا صلة بينه وبين الأدب ولا يمكن لهذا التوجيه الذي يأتي من الخارج أن يتيح أدباً صحيحاً بريئاً من المصانعة والمداجاة. ولنكن صريحين مرّة أخرى: ما تحبّون للأديب؟ أتحبون أن يكون خادعاً وأن يكون مخدوعاً؟ وإذن فليكن الأديب موجّهاً ولتكن سيرة الأديب مع الذي يوجّهونه كسيرة أبي تمام والمتنبي مع الذين كانوا يعبثون بعقولهم من الممدوحين، أم تريدون أن يكون الأديب صريحاً مؤثِراً للحقّ والخير إن أراد؟ وإذن فخلّوا بين الأديب وبين حريّته، وخلوا بين القرّاء وبين حريّتهم. وأوكد لكم أني من أكثر النّاس قراءة للأدب الموجّه، الموجّه على اختلاف التوجيهات التي تصبّ على الأدب صبّاً في هذه الأيّام. لا تصدّقوا أني لا أقرأ أدباً شيوعياً فأنا أقرأه وأكثر من قراءته، وأقرأ أدباً اشتراكياً وأكثر من قراءته، وقرأت آداباً متأثّرة بالفاشية. ولكن اسمحوا لي أن أقول إنّي قلّما أحسست الصّدق في هذه الآداب الموجّهة، وأكثر ما تأخذني الرحمة والشفقة لكتّاب بارعين متميّزين قادرين حقّاً على أن يبدعوا أو ينتجوا، ولكن الظروف أرادت أن يكونوا موَجّهين فأضاعت من قيمة ما يكتبون كثيراً وأضاعت منها كثيراً جداً. خذوا قصّة البرج العاجيّ وهؤلاء الذين يكتبون فيما لا يرضي الشعب أو فيما لا يصوّر حاجة الشعب. ما هذا الكلام؟ أوّلاً ما هي حاجة الشعب؟ ما عسى أن تكون حاجة الشعب، ومن الذي يستطيع أن يحقّق ويحدّد حاجة الشعب في وقت من الأوقات؟ أيحتاج الشعب إلى أن يأكل بعد جوع، ويكتسي بعد عري، ويروى بعد ظمإ، ويقضي كلّ هذه الحاجات الماديّة التي فقد فيها النّظام الاجتماعي وقسمت ثمرات الأرض على أساس ليس للعدل فيه نصيب؛ فإذا أُتيح للشعب أن يظفر بهذا كلّه وإذا لم يتح للشعب أن يظفر بهذا كلّه، أتظنّون أنّه لا يحتاج إلى هذه الحاجات الماديّة؟

أليس للشعب عقل وذوق وقلب وعواطف؟ ما الذي يصنعه غزل الغزلين مثلاً في إطعام الجائعين؟ إذ قرأ الجائع شعر كثيّر أو شعر جميل أو شعر من شئتم من شعراء الغزل لم يجد ما يدفع عنه الجوع في قراءة هذا الشعر. أواثقون أنتم بأنّه ليس محتاجاً لقراءة هذا الشعر؟ أمّا أنا فمطمئن إلى أنّه محتاج أشدّ الحاجة إلى قراءة هذا الشعر، وأنّ الشعب بطبعه أرشد من أن يخلط بين الأشياء التي لا سبيل إلى أن يخلط بينها؛ فهو يفرق بين ما ينفع جسمه وبين ما ينفع عقله، وهو حريص حين يتاح له حظّ من ثقافة أن يرضي روحه كما أنّه حريص على أن يرضي جسمه. ولمَ لا نذكر حقائق التّاريخ؟ أتظنّون أنّ هؤلاء الشعراء الذين تغزّلوا في القرن الأوّل الهجري كانوا يتغزّلون

لأنهم كانوا عشّاقاً يهيمون بليلى وعبلة وغيرها من هؤلاء السيّدات؟ أما أنا فأؤكّد لكم أنّ هؤلاء الشعراء إنّما كانوا يستعينون بغزلهم على احتمال الحرمان ويتعزون به عن آمال بعيدة لم يتح لهم أن يحقّقوها، وكانوا ربّما أرضوا أرواحهم بعد أن حيل بينهم وبين أن يرضوا أجسامهم كما ينبغي. فلنكن إذن مقتصدين ولنعترف بأنّ الشعب ليس طعاماً وشراباً ولباساً فحسب. إنّ من الإجرام أن يتعرّض الشعب للجوع، للبأساء أو يتعرّض لشقاء مادامت الأرض تعطي ثمراتها ومادام الجهد الإنساني يستطيع أن ينتج من الخبز ما يسع النّاس جميعاً.. من الإجرام مع ذلك أن يجوع جائع، وأنا أعتقد كما كان يقول بعض المعاصرين أنّ جوع فرد واحد في وطن من الأوطان يخلّ التوازن في هذا الوطن. ولكن هذا كلّه شيء، وقصر الأدب وقصر تفكير الأديب وقصر اتّجاه الأديب على هذا النّوع من الحياة شيء آخر. وما أكثر ما يقرأ الإنسان المثقّف ثقافة أديب من هؤلاء الأدباء الذين اعتصموا ببرجهم العاجي في بعض الأحيان وكتبوا كلاماً لا يمسّ إلاّ أنفسهم – ما أكثر ما نقرأ هذا الكلام فنجد فيه أحياناً كثيراً من الرّضى وكثيراً من المتعة وكثيراً من اللذّة. لماذا؟ لأنّنا نحب المُثل العليا ونحبّ الجمال من حيث هو جمال ولسنا محتاجين دائماً إلى أنْ نتّخذ كلّ شيء وسيلة وأن نجعل لكلّ شيء غاية. إنّما نتّخذ الأدب غاية في نفسه. ليس من الضروري أن نسخّر الأدب لهذا الغرض أو ذاك، وليس من الضروري أن نسخر الفنّ نفسه لهذا أو ذاك. إنّ الفنّ ينفعنا في حياتنا الماديّة سواء أردناه على ذلك أم لم نرده. إنّه يبتكر لنا من النظريّات ومن القوانين ما يتيح للتطبيقيين أن يخترعوا ما يخترعون من الأدوات. ولكن اسمحوا لبعض العلماء أن يحبّوا العلم لا لشيء إلاّ لأنّ فيه رضى لنفوسهم، ويحبّون العلم لأنه معرفة المعرفة فحسب، يرضون بالمعرفة مهما تكن نتائجها، سواء كانت نتائجها إختراع كلّ هذه الآلات وترقية العالم من الناحية الماديّة إلى حيث ترون أم لم تكن. اسمحوا لعالم يعيش في معمل أن يرضى ويجتهد بنتائج التجارب التي يجريها وأن يترك لغيره استغلال هذه التجارب، في الاختراعات والاستكشافات إلى آخر هذه الحياة الماديّة التي تعرفونها. كذلك الأديب، دعوه ينتج، ودعوه ينتج كما يريد طبعه أن ينتج، وكما تريد له الحياة التي يحياها أن ينتج، ثم خذوا إنتاجه واصنعوا به ما تريدون. اسيغوه إن أعجبكم واتركوه إن لم يعجبكم، ولكن دعوه ينتج ودعوه ينتج لأنه أديب، واذكروا أنّ أبا العلاء المعرّي رحمه الله كان يسخر من الذين كانوا يظنّون أنّ النّحلة مسخّرة للإنسان تصنع له العسل ليستمتع به بل كان يقول إن النحلة لم تنشئ عسلها لتستمتع به أنت وإنّما أنشأت عسلها لنفسها.

لا ينبغي إذاً أن ننظر للأديب على أنّه مسخر نوجهه لهذه الغاية أو تلك، بل ينبغي أن ننظر للأديب على أنّه عنصر حي ينتج ما يستطيع وننتفع نحن بما ينتج لا أكثر ولا أقلّ. ولا تسألوني بعد ذلك، أيّنا انتصر وأيّنا لم ينتصر! فإذا كان الخاصّة هم الذين يستطيعون أن يقرؤوا الأدب وأن يفهموه وأن يذوقوه وأن يستمتعوا به فأنا المنتصر، بشرط أن تفهموا جيّداً أنّ هذه الخاصّة تختلف باختلاف العصور وباختلاف الظروف، وقد يأتي وقت يصبح الشعب كلّه من هذه الخاصّة لأنّه تعلّم. وإذا كانت الخاصّة طائفة بعينها من النّاس لا تزيد ولا تنقص ولا تتغيّر وإنّما هي طائفة محدودة بعينها فطبعاً ينتصر الأستاذ رئيف وأصبح أنا من السخف بحيث أستحيي من الوقوف بين أيديكم.

وإذن فلنتفق ونتفق قبل كلّ شيء على أن نحتاط من مثل هذه الألفاظ: الخاصّة والعامّة والشعب والتوجيه وما إلى ذلك. ولنحذر أن ينتهي بنا هذا كلّه إلى إفساد الأدب وإخراجه عن طوره. وقد احتاط الأستاذ رئيف، ويسرّني ويسعدني أن أعترف له بهذا الاحتياط، فهو لم يرد أن ينزل الأدب إلى العامّة ولا أن يتجاوز الأدب عن جماله ومثله العليا في الروعة والجمال. فإذن لقد اتفقنا سواء أراد هو أم لم يرد. اتفقنا لسببٍ بسيط مادام الأديب لا يضحي بالرّوعة الفنيّة لا في الموضوع أو المضمون كما يحب أن يقول.

ولكن مثل هذا الكلام عندما يذاع في هذه الأيّام وتنشره الصحف ويقراه القادرون على فهمه والعاجزون عن هذا الفهم قد يترك آثاراً خطيرة حقّاً، يترك آثاراً خطيرة لأنّ كثيراً من النّاس يستقرّ في نفوسهم أنّ الأدب يجب أن يكون مكتوباً بحيث يستطيع كلّ إنسان أن يفهمه، وبحيث يستطيع كلّ إنسان أن يذوقه. وإذن فلا معنى للكتابة بهذه اللّغة العربيّة الفصحى لأنّ الشعب لا يفهم اللّغة العربيّة إلاّ إذا بُسّطت له أشدّ تبسيط وخولف فيها عن قواعد اللّغة ودُفع بها إلى العاميّة التي يرتبط بها لسانه في اختلاف الأقاليم. الشعب إذن أو كثير من الذين يسمعون كثيراً من هذه النظريات يظنّون أنّ الأدب يجب أن ينزل ليفهمه النّاس جميعاً. أما أنا فأعتقد، وأظنّ أنّ الأستاذ رئيف يعتقد معي أيضاً، أن الأدب يجب أن لا ينزل وإنّما الوظيفة الأولى، العمل الأوّل، المنصب الأساسي لكلّ أدب ولكلّ علم ولكلّ معرفة إنّما هو أن يرفع النّاس إليه لا أن يهبط هو إلى النّاس. ومهما يكن من شيء فإني أعتذر إلى حضراتكم أوّلاً من هذه الإطالة دون أن أستوفي الموضوع حقّه، وأعتذر إلى الأستاذ رئيف فقد أكون قسوت بعض القسوة أو تجاوزت بعض ما ينبغي له من العناية ولكن أؤكّد له أنّي أقدّره وأقدّر آراءه وأقدّرها سواء وافقتُ عليها كلها أم لم أوافق إلاّ على بعضها.

طه حسين